الإنزياح الإستبدالي في نهج البلاغة

الأستاذ المساعد الدكتور
صحبت اله حسنوند
جمهورية إيران الإسلامية
قسم معارف القرآن وأهل البيت(عليهم السلام) - كلية الإلهيات ومعارف
أهل البيت - جامعة أصفهان

Substitute Defamiliarization in Nahj al-Balaghah

Assistant Professor Dr.
Sahbet Elah Hasanund
Islamic Republic of Iran
Department of Knowledge of the Qur'an and Ahl al-Bayt (peace be upon him) - College of Divinities and Knowledge of Ahl al-Bayt - University of Isfahan
hasan.vand@yahoo.com

الخلاصة :
تعدّ دراسة ظاهرة الانزياح عن الأصل المثالي ركيزة أساسية من ركائز الدراسات الأسلوبية الحديثة في تناولها للنصوص الأدبية. يمتاز نهج البلاغة بتوظيف الطرق التعبيرية المختلفة التي تموج بدلالات عميقة منها الانزياح عن الطرق الأصلية إلي غيرها كالمجاز، والاستعارة، والكناية التي يطلق عليها في الأسلوبيات الانزياح الاستبدالي. ترمي هذه المقالة إلي دراسة الانزياح في الصور البيانية لتسليط الضوء علي تلك الدلالات والإيحائات التي تكمن وراء هذه التراكيب المنزاحة و ذلك علي توظيف المنهج الوصفي-التحليلي والمكتبي. واستنتجت المقالة أخيراً إلي أنّ فائدة الإيضاح، وتصوير الحقيقة المعنوية في صورة حسية ملموسة، والاختصار والإيجاز، والمبالغة في المعني النزاح إليه، و إقناع المخاطب من أهمّ الأغراض التي يؤديها أسلوب الانزياح الاستبدالي في نهج البلاغة.

المفردات الرئيسة : نهج البلاغة ، الانزياح الاستبدالي ، المجاز ، الاستعارة ، الكناية .

Abstract:
Deviation analysis in criteria and templates is one of the major issues in contemporary stylistic research. There are different interpretive forms in Nahj al-Balaghah that have deep semantic implications. Deviations from the main ways of interpretation as metonymies, metaphors, and ironies are the most important forms of substitute defamiliarization in Nahj al-Balagha. The research employs a descriptive-analytical method and a library technique to analyze the semantic implications of this kind of defamiliarization in Nahj al-Balagha. The research results show that the explanation and explication of meaning, the drawing of abstract meanings in tangibly and materially, brevity observance, exaggeration in the meaning, and persuasion of the audience are also the most important reasons for the substitute defamiliarization desecration in Nahj al-Balaghah.

Keywords : Nahj al-Balaghah , substitute defamiliarization , metonymy, metaphor , irony.Criticism , Umweltliteraturkritik

١-المقدمة

تعتبر دراسة ظاهرة الانزياح عن الأصل المثالي موضوعا أساسياً من موضوعات الدراسات الأسلوبية الحديثة في تناولها للنصوص الأدبية، والكشف عن التحولات المختلفة للبني التركيبية في توترها الدائم بين البنية السطحية الإبداعية والبنية العميقة المثالية، فأسلوب الانزياح إنتاج إبداعي ملازم دائماً للخطاب الأدبي وهو يحتوي علي ركيزتين أساسيتين، الأولي: الخروج عن البنية المثالية الأصلية، وتجاوز مستوي الخطاب العادي المألوف، والثانية: البنية الجمالية التي تقف وراء البني الإبداعية، وتدعم تأثيرها في المتلقي.

يعدّ نهج البلاغة الكتاب الخالد بعد القرآن الكريم، والسّنة النبوية النبيلة، فهو يتلوهما في القصد والمنزلة سواء أكان في عمق محتواه و مضامينه، أم في روعة نهجه وأدبه وأسلوبه. ويمتاز هذا الكتاب بما فيه من الأساليب التعبيرية التي تزخر بدلالات ومعان عميقة، ومن هذه الأنماط التعبيرية هو الانزياح والعدول عن الطرق الأصلية إلي غيرها لدي أصحاب البيان كالمجاز والاستعارة والكناية. ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة التي تحاول الوقوف علي أبرز صور الانزياح في نهج البلاغة لتسليط الضوء علي الدلالات الكامنة وراء هذه الصور. وقدكان ذلك من خلال مهنج وصفي تحليلي ومكتبي يحاول أن يرصد ظاهرة الانزياح الاستبدالي في الصور الفنية في نهج البلاغة، ويزيل غوامضها، ويظهرمحاسنها، وصولا إلي فهم بلاغة النص العلوي.

١-١-أسئلة البحث

يرمي البحث للإجابة عن الأسئلة التالية:

أ-ما هو دور الانزياح الاستبدالي في تشحين الأساليب البيانية بالتصرّف في التعبير والتعدّد في الدلالات؟

ب- ما هو دور الانزياح الاستبدالي في توفير الأبعاد الجمالية المتبلور في نهج البلاغة؟

٢-١-خلفية البحث

هناك عدة بحوث و دراسات تناولت بعض جوانب الانزياح في نهج البلاغة.منها:

«الانزياح التركيبي(التقديم و التأخير) في خطب نهج البلاغي»(١٤٣٧) عنوان مقالة نشرها بختيار مجاز وسردار الأصلاني ونصرالله الشاملي في مجلة اللغة العربية وآدابها، السنّة ١١، العدد ٤. ناقش فيها الباحثون دراسة أسلوب الانزياح المتمظهر في التقديم والتأخير في خطب نهج البلاغة للكشف عن الدلالات والأغراض البلاغية الكامنة وراء هذا الأسلوب.

«آشنازدايي و برجسته سازي كلام در خطبه هاي نهج البلاغه با بهره گيري از صنعت التفات» (١٣٩٤ش) عنوان مقالة نشرها علي الطاهري في مجلة«فصلنامه پژوهشنامه نهج البلاغه» السنة ٣، العدد ١٢. عالج الباحث فيها دراسة أسلوب الالتفات بصورها المختلفة كنوع من أنواع الانزياح التركيبي في خطب نهج البلاغة.

«دلالة العدول في نصوص نهج البلاغة(الأقول القصار أنموذجاً)» (٢٠١١)، دراسة ألقتها حوراء مهدي الكوفي في مؤتمر نهج البلاغة سراج الفكر وسحرالبيان بجامعة الكوفة. وقد ركزت الباحثة فيها علي نماذج من المفردات اللغوية التي تحمل في طياتها تكثيفاً دلالياً بسبب ظاهرة العدول.

مما امتاز به هذا البحث هو دراسة الانزياح الاستبدالي في نصوص نهج البلاغة وما فيها من الإيحات والأبعاد الجمالية.و هذا ما لم يدرس في البحوث والدراسات السابقة.

٢-البحث

٢-١-المهاد النظري

الانزياح لغة مشتقّ من(ز،ي،ح)؛ زاح الشئُ يزيح وزيوحاَ وزِيوحاَ وانزاح: ذهب و تباعد(ابن منظور،٢٠٠١: مادّة زيح)، وجاء في القاموس المحيط:« زاح: يزيح زَيحاَ وزُيوحاً زَيحانا: بَعُدَ وذَهب، كانزاح وأزَحته» (الفيروزآبادي، ٢٠٠٤: مادّة زاح)، وفي الدراسات النقدية و الأدبية فهو يعادل Ecart بالفرنسية و Deviation بالإنجليزية (خياط، د.ت: ٣٠٤). لقد درس عدد كبير من الباحثين الانزياح في اللغة والأدب فيعرّفه بعضهم بأنّه:« استعمال المبدع للغة مفردات و تراكيب وصوراَ استعمالاَ يخرج به عمّا هو معتاد و مألوف بحيث يؤدي ما ينبغي له أن يتّصف به من تفرّد وإبداع وقوّة جذب وأسر» (ويس،٢٠٠٢ : ٨). و يظهر لنا من هذا التعريف أنّ الانزياح هو الفيصل بين الكلام العادي والكلام الأدبي، وإذا رمنا استجلاء الفروق بين هذين المستويين من الكلام فسنجد أنّنا أمام آراء كثيرة تؤكدها، فمن ذالك ما ارتاه تودوروف حين اعتبر:« أنّ الحدث اللساني العادي خطاب شفّاف نري من خلاله معناه، و لانكاد نراه هو في ذاته، فهو منفذ بِلّوريٌ لا يقوم حاجزاً أمام أشعة البصر، بينما يتميز عنها الخطاب الأدبي بكونه ثخناً غير شفّاف، يستوقفك هو نفسه قبل أن يمكنك هو من عبوره أو اختراقه، فهو حاجز بلّوري طلي صوراً ونقوشاً، فصدّ أشعة البصر أن تتجاوزه» (المسدي، ١٩٨٢ : ١١٦). و بناء علي هذا التصور يمكن أن نقول إنّ الكلام أو الخطاب العادي يعتمد علي المباشرة، و يهدف إلي التبادل النفعي، ويتسم هذا المستوي من الكلام بمحدودية معجمه، إذ ليس في ألفاظه الجديد، ولا في معانيه

المستحدث، وهو لايحتاج إلي جهد عقلي أو فكري لفهم المراد منه، في حين أنّ الخطاب الأدبي يصدر عن ملكة عند منشئه، وهو يخاطب الوجدان، ويسعي إلي أن يمس إحساس متلقيه مساَ سامعاً كان أو قارئاً، كما يتميز بأنّ ألفاظه مختارة، ومعانيه مبتكرة، وقد يحتاج لفهمه ولبيان ما يراد به إلي إمعان الفكر وإعمال العقل.

وتحدّث الكثير من الباحثين عن أنواع الانزياح حتي أوصلها بعضهم إلي خمسة عشر انزياحاً، يمكن تصنيفها إلي خمسة أنواع:

١-الانزياحات الموضعية والانزياحات الشاملة: يمكن تصنيف الانزياحات تبعاً لدرجة انتشارها في النصّ كظواهر محلّية موضعية أو شاملة، فالانزياح الموضعي يؤثر علي جزء محدود من السياق، فالاستعارة –مثلاَ- يمكن أن توصف بأنّها انزياح موضعي عن اللغة العادية، أما الانزياح الشامل فيؤثر علي النصّ بأكمله، ومثاله معدلات التكرار الشديدالارتفاع أم الانخفاض لوحدة معينة من النصّ، ممّا يعدّ انزياحاً شاملاَ، ويمكن رصده عن طريق الإجرائات الإحصائية.

٢-الانزاياحات السلبية والانزياحات الإيجابية: وذلك تبعاً لعلاقتها بنظام القواعد اللغوية، حيث نعثر علي انزياحات سلبية تتمثّل في تخصيص القاعدة العامّة وقصرها علي بعض الحالات، كما توجد انزياحات إيجابية تتمثّل في إضافة قيود معينة إلي ما هو قائم بالفعل، وفي الحالة الأولي تنجم تأثيرات شعرية نظراً للإعتداء علي القواعد اللغوية، وفي الحالة الثانية تنجم التأثيرات نظراً لإدخال شروط وقيود علي النصّ.

٣-الانزياحات الداخلية والانزياحات الخاريجية: يمكن تصنيف الانزياحات من وجهة النظر التي تعتمد علي العلاقة بين القاعدة والنصّ المراد تحليله إلي انزياحات داخلية وانزياحات خارجية، فالانزياح الداخلي يظهر عندما

تنفصل وحدة لغوية ذات انتشار محدود عن القاعدة المسيطرة علي النصّ في جملته، و الانزياح الخارجي يظهر عندما يختلف أسلوب النصّ عن القاعدة الموجودة في اللغة المدروسة.

٤-الانزياحات الخطية(السياقية)، والصوتية، والنحوية، والصرفية، والمعجمية، والدلالية: و ذلك تبعاً للمستوي اللغوي الذي تعتمد عليه.

٥-الانزياحات التركيبية والاستبدالية: وذلك تبعاً لتأثيرها علي مبدأي الاختيار والتركيب في الوحدات اللغوية، فالانزياحات التركيبية تتصل بالسلسلة السياقية الخطية للإشارات اللغوية عندما تخرج عن قواعد النظم والتركيب، مثل الاختلاف في ترتيب الكلمات، أمّا الانزياحات الاستبدالية فتخرج عن قواعد الاختيار للرموز اللغوية، مثل المجاز والاستعارة(فضل، ١٩٨٥: ١٥٥-١٥٦).

إنّ هذه الأشكال التي قدّمها الباحثون للانزياح لم تكن عناصر يمكن قبولها دون اعتراض؛ لأنّ الانزياح يمكن أن يكون مفهوماً واسعاً بحيث يمكن القول إنّ اللغة الشعرية هي الانزياح عن اللغة العادية أو عن لغة النثر، و بالمثل فإنّ مفهوم الانزياح يمكن أن يكون ضيقاً مقتصراً علي المجازات و بعض الإجراءات الأسلوبية المتعلقة بالبلاغة، من مثل الاستعارة والتقديم والتأخير والحذف وغيرها، ولكن هل كلّ النصوص الأدبية استعارات أو تقديم وتأخير أو حذف. إنّ هذه الإجراءات أو الظواهر الأسلوبية تأتي بصورة أو أخري في النصوص الأدبية، لكن ليس النصّ الأدبي كلّه استعارة أو تقديماً وتأخيراً أو حذفاً وغير ذلك من الإجراءات الأسلوبية، لذلك فإنّ مواجهة الانزياحات في نصّ من النصوص تعني التركيز علي عناصر دون العناصر الأخري(ربابعة، ٢٠٠٣: ٣٦-٣٧).

إنّ ظاهرة الانزياح ليست خاصة بالنقد الحديث، بل ترتدّ في أصولها إلي أرسطو وإلي ما تلا بعده من بلاغة ونقد. فأما أرسطو فقد ماز بين لغة عادية

مألوفة وأخري غير مألوفة، ورأي أنّ اللغة التي تنحو إلي الإغراب تتفادي العبارات الشائعة هي اللغة الأدبية، حيث يقول:« جودة العبارة في أن تكون واضحة غير مبتذلة، فالعبارة المألوفة من الأسماء الأصلية هي أوضح العبارات، لكنّها مبتذلة...أما العبارة السامية الخالية من السوقية فهي التي تستخدم ألفاظاً غير مألوفة، وأعني بالألفاظ غير المألوفة الغريب والمستعار والمحدود وكلّ ما بعد عن الاستعمال»(أرسطو، ١٩٦٧: ١٢٢). و يقول أيضاً:« بتحوير هيئة الكلمات عن أوضاعها الأصلية، والخروج عن الاستعمال العادي تجتنب السوقية» (المصدر نفسه: ١٢٤).

وإذا التفتنا إلي التراث الإسلامي محاولين تتبّع بذور الانزياح فيه، فإنّنا سنجد القدر الوفير من الآراء والإشارات التي يصحّ اتخاذها مؤشراً دالّاً علي حضور فكرة الانزياح عند المسلمين، فأدرك النقاد والبلاغيون في أنّ المستوي الفنيّ للكلام لايمكن أن يتحقّق إلا بالانزياح والخروج عمّا هو مألوف، و لعلّ ما جاء به هؤلاء النقاد- خاصّة عبد القاهر الجرجاني- من جماليات في الأسلوب تتضمن الاستعارة والتشبيه، والمجاز، والكناية، والتقديم والتأخير، والحذف والايجاز، والإطناب وغيرها من قضايا البلاغة والنقد، هي إشارة كافية لتنبّه القدماء لكلّ ما هو خارج عن المألوف، وإدراك تامّ للتفريق بين اللغة العادية واللغة الفنية، وفي هذا الشأن يشير الجرجاني إلي أنّ:« الكلام علي ضربين: ضرب أنت تصل منه إلي الغرض بدلالة اللفظ وحده، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلي الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلّك اللفظ علي معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثمّ تجد لذلك المعني دلالة ثانية تصل بها إلي الغرض، ومدار هذا الأمر علي الكناية والاستعارة والتمثيل، أو لا تري إذ قلت: « هو كثير رماد القدر»، أو قلت: «طويل النجاد»،أو قلت في المرأة: «نؤوم الضحي»، فإنّك في جميع ذلك لاتفيد غرضك الذي تعني من مجرّد اللفظ، ولكن يدلّ اللفظ علي معناه الذي يوجبه ظاهره، ثمّ يعقل السامع

من ذلك المعني علي سبيل الاستبدال معنًي ثانياً هو غرضك، كمعرفتك من كثير رماد القدر أنّه مضياف، ومن طويل النجاد أنّه طويل القامة، ومن نؤوم الضحي في المرأة أنّها مترفة و مخدومة»(الجرجاني، ١٩٩٢: ٢٦٢).

يفرّق عبد القاهر الجرجاني في هذا النصّ بين الكلام العادي« الذي تصل منه إلي الغرض بدلالة اللفظ وحده»، والكلام الذي فيه العدول و الانزياح« الذي لا تصل منه إلي الغرض بدلالة اللفظة وحدها، لكن يدلّك اللفظ علي معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة»، و قوله:« ثمّ تجد لذلك المعني دلالة ثانية تصل بها إلي الغرض»، يدلّ علي أنّ المعني ينزاح عن مدلوله اللفظي الكائن في دلالته الظاهرة أو المباشرة أي(عن المعني الأول)، إلي دلالة خفية غير مصرّح بها أي(المعني الثاني أو معني المعني)، و هكذا فإنّ الجرجاني في حديثه عن المعني ومعني المعني يقترب كثيراً من مفهوم الانزياح في الدراسات الأسلوبية المعاصرة.

يتبيين مما مضي أنّ للغة مستويين: الأول عادي مثالي، والثاني أدبي منزاح، والمستوي الأول يناسب النحاة وعلماء اللغة ومن حذا حذوهم، أمّا المستوي المنزاح فقد رأي فيه البلاغيون جمالاً نسبياً وعدّوه من متطلبات اللغة الأدبية، وجعلوا من المستوي الأول معيارا يقيسون به مقدار انزياح المستوي الفني، لأنّ:« التركيب اللغوي في أدائه الفني قد ينزاح عن النمط التقليدي بأن يتضمن بعض الملامح التي ينفرد بها عمّا سواه، ولاينبغي أن ننظر إلي تلك الانزياحات علي أنّها رخص شعرية أو ابتداع فردي، وإنّما هي في الواقع نتاج براعة استخدام المادّة اللغوية المتوفرة، وتوظيفها الذكي للإمكانات الكامنة في اللغة»(عيد، ١٩٩٣: ١٤٨).

معني هذا أنّ الانزياح الدلالي يقوم علي استبدال المعني الحقيقي أو السطحي للفظة بالمعني المجازي العميق، حيث يتمّ الانتقال من المعني الأول إلي المعني الثاني أو كما يقول جان كوهن:« من المعني المفهومي إلي المعني

الانفعالي» (كوهن، ١٩٨٦: ٢٠٥) وهذا الانتقال يحصل« عندما يتعادل المعنيان أو إذا كانا لايختلفان من جهة العموم والخصوص، كما في حالة الانتقال من المحل إلي الحال، أو من السبب إلي المسبب أو من العلامة الدّالة إلي الشيء المدلول عليه» (فندريس، ١٩٥٠: ٢٥٦).

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أنّ النقاد والبلاغيين القدامي كان لهم إشارات تعدّ بذورا في الانزياح الاستبدالي، ومن هؤلاء عبد القاهر الجرجاني الذي قسم المعني إلي الضربين: المعني و معني المعني. فالضرب الأول، هو القول علي سبيل الحقيقة، حيث يتقيد صاحب الخطاب بالمعني والدلالة المعجمية، وقد سمّي الجرجاني هذا الضرب تفسيراً از منابع اسلوبية(الجرجاني، ١٩٩٢: ٤٤٤). أما الضرب الثاني فهو القول علي سبيل المجاز، حيث يخرج الكلام إلي معان جديدة غير تلك التي يوجبها ظاهره، وهي معان يعقلها السامع من المعني الظاهر علي سبيل الاستدلال و قد أشار الجرجاني إلي أهمية هذا الضرب من الكلام وسمّاه المفسَّر ورأي فيه فضلاً ومزية علي الضرب الأول الذي سمّاه تفسيراً(المصدر نفسه: ٢٦٣). و هذه المزية تأتي من كون الدلالة في التفسير دلالة لفظ علي معني، وفي المفسَّر دلالة معني علي معني.

ونخلص مما تقدّم إلي أنّ الانزياح الاستبدالي أسلوب من أساليب الأداء غير المباشر يتمّ عن طريق عدّ طرق وألوان بلاغية كالمجاز، والاستعارة، والكناية و غيرها من الألوان البلاغية التي يتمّ فيها انزياح المعني وتبدّله بطريقة تدخل البلاغة في علم الدلالة.

وانطلاقاً من هذا المهاد النظري سيحاول الباحث الوقوف علي مظاهر الانزياح الاستبدالي في نصوص نهج البلاغة، إذ يعدّ هذا الانزياح من أبرز أنواع الانزياح التي وظّفها صاحب نهج البلاغة، و هو يدلّ علي بلاغة الإمام(عليه السلام) حيث يدعو إلي التأمل والتدبّر المستمر لإدراك ما وراءه من

مقاصد و إيحاءات. وهذه الطريقة التي يوظفها الإمام علي(عليه السلام) في نهج البلاغة تندرج تحت ما يسمّي بالانزياح الاستبدالي الذي يعني الانتقال من المعني الأساسي أو المعجمي للفظة إلي المعني السياقي الذي تأخذه الكلمة حينما توضع في سياق معين يحدد معني الجملة بأكملها، حيث تنزاح الدوال عن مدلولاتها فتختفي الدلالات المألوفة للألفاظ لتحلّ مكانها دلالات جديدة غير معهودة يسعي إليها المتكلّم.

٢-٢-الانزياح المجازي

المجاز لغة بمعني الانتقال والعبور من مكانٍ إلي آخر، فهو مشتقّ من جازَ الطريقَ أو الموضعَ جوزاً ومجازاً وجوازاً إذا سار فيه وسلكه، وأجازه بمعني تعدّاه وقطعه إلي غيره(ابن منظور، ٢٠٠١: مادّة جوز). فالكلمة تحتمل في أصل دلالتها اللغوية فكرة المسلك الرابط بين نقطتين بما يمكن معه الانتقال والعبور من إحداهما إلي أخري.

ولايختلف معني المجاز في الاصطلاح كثيراً عن ذلك المعني اللغوي، بل يشترك المعنيان في الدلالة علي التحوّل والانتقال، يقول أرسطو:« المجاز نقل اسم يدلّ علي شيء إلي شيءآخر»(أرسطو،١٩٦٧: ٥٨). و يجمع جمهور البلاغيين علي أنّ المجاز يعني استخدام الكلمة في معني غير المعني الذي وضعت له في أصل اللغة، فإذا كانت«الحقيقة» أصلاً في الاستعمال اللغوي، فإنّ«المجاز» خروج عن هذا الأصل، وانتقال في دلالة الكلمة المعينة من مساحة دلالية محددة إلي مساحة أخري لعلاقة بين الدلالتين، مع وجود قرينة تمنع من إرادة المعني الأصلي، وهذا ما أثبته عبد القاهر الجرجاني حينما عرّف المجاز بقوله:« وأما المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز»(الجرجاني، ١٩٩١: ٣١٧-٣١٨). ويتراءي لنا أنّ الجرجاني يوافق أرسطو في فكرة استناد أسلوب المجاز إلي

عملية النقل، لكنه يخصه بالبنية التحتية العميقة خلافا لأرسطو الذي جعلها في البنية السطحية إذ يري الجرجاني أنّ« المجاز يفيد أن تجوز بالكلمة موضعها في أصل الوضع وتنقلها عن دلالة إلي دلالة أو ما قارب ذلك»(المصدر نفسه:٣٦٩).

ويفهم من ذلك أنّ فن المجاز يضمّ نظامين دلاليين؛ يشكل النظام الدلالي الأول المعروف بالمعني الدلالة التقريرية الأولي المفهومة من ظاهر العبارة، في حين يجسّد النظام الدلالي الثاني المعروف بمعني المعني الدلالة الإيحائية الإضافية التي يصل إليها الذهن بالتأمل والتلقي، و الحقيقة أنّ الدلالة الأولي لا تعدو أن تكون استعمالاً شائعاً مألوفاً للفظ من الألفاظ، وفي المقابل فإنّ الدلالة الثانية تمثل انزياحاً عن ذلك المألوف الشائع، و هذا الانتقال من الدلالة الحقيقية إلي الدلالة المجازية هو ما يسمّي بالانزياح الدلالي.

من المعروف أنّ البلاغيين تحدّثوا عن نوعين من المجاز: مجاز عقلي و آخر لغوي، و لم يكن المجازات الواردة في نهج البلاغة بمنأي عن هذا التقسيم، فقد اشتملت نصوصه علي نماذج من المجاز العقلي واللغوي، والذي موضوع الدراسة في هذه المقالة هو الجاز اللغوي بنوعيه: المجاز المرسل و الاستعارة؛ لأنّه يمثل جوهر عملية الانزياح الدلالي، علي عكس المجاز العقلي الذي يخرج من دائرة الانزياح الدلالي ليدخل في دائرة الانزياح التركيبي، فهو:« إسناد الفعل أو ما في معناه إلي فاعل غير فاعله الحقيقي، لعلاقة بينهما، مع وجود قرينة تمنع إرادة الإسناد الحقيقي» (القزويني، ١٩٩٣: ٨٣/١). فيلحظ من هذا التعريف أنّ المجاز العقلي لا يكون إلا في الإسناد أي فيما كان فيه المعني قائماً علي مسند و مسند إليه، ولهذا فإنّه يعرف باعتبار هذين الطرفين، ويقع في الجملة والتركيب، ولاعلاقة لذلك بالألفاظ ذاتها دون إسنادها، لأنّه ليس من باب اللفظ المفرد فينظر له بالاستعارة، ولايري في الكلمة المنقولة عن الأصل فينظر له في المجاز المرسل، وإنما هو في الإسناد.

واستناداً إلي ما تقدّم آثرنا أن يكون البحث هنا مقتصراً علي المجاز اللغوي لارتباطه الوثيق بالانزياح الدلالي، فالمجاز اللغوي هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له أصلاً، لعلاقة بين المعني الحقيقي والمعني المجازي، مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعني الحقيقي(المصدر نفسه:١٢/٥). و هذا يعني أنّ الألفاظ لاتحتفظ بدلالتها الأصلية، وإنّما تنتقل إلي دلالات أخري جديدة يسعي المتكلّم إلي إيصالها إلي المتلقي.

ينقسم المجاز اللغوي إلي قسمين كبيرين: المجاز المرسل والاستعارة. أما المجاز المرسل فإنه مجاز لغوي ينقل فيه اللفظ عن دلالته الأصلية إلي دلالته المجازية، لعلاقة غير المشابهة، و سمّي بالمرسل لأنّه غير مقيد بعلاقة المشابهة، وإنّما له علاقات كثيرة ذكر الخطيب القزويني منها تسع علاقات رئيسة (المصدر نفسه:٢٥/٥-٣٢) وأوصلها الزكشي إلي ستٍ وعشرين علاقة (الزركشي،د.ت: ٢٥٩/٢-٢٩٧). وليس من هدفنا تتبع تلك العلاقات بالاستقصاء والتفصيل في هذه الدراسة، فذلك معروف في كتب البلاغة، وإنّما نكتفي بذكر ما نعتقد أنّ له أهمية خاصّة في الانزياح الدلالي ولعلّ أشهر هذا العلاقات هي:

١-٢-٢-العلاقة السببية

وهي أن يذكر السبب و يراد به المسبّب، أي أن يكون المعني الموضوع له في اللفظ المذكور سبباً في المعني المراد، فيطلق السبب علي المسبّب أو النتيجة، ومثال هذه العلاقة قوله(عليه السلام):«إنّ اللهَ سُبحانَه وتَعالَي جَعلَ الذّكرَ جِلاءً لِلقُلوبِ، تَسمَعُ بِه بعدَ الوَقرةَ، وَ تُبصِرُ به بعدَ العَشوةَ...» (الخطبة/٢٢٢) قد انزاحت أربعة كلمات وهي(تسمع/ الوقرة/ تبصر/ العشوة) في هذا النص عن دلالتها الأصلية إلي دلالة أخري جديدة وذلك لإطلاق اسم السبب علي المسبّب في كلّ هذه المفردات(ابن ميثم،١٣٦٢: ٦٩/٤). فانزاح لفظ«تسمع»

عن دلالته الأصلية، فهو ليس سمعاً في الحقيقة، وإنما هو بمعني الإقبال علي ما ينبغي سماعه من أوامر الله ونواهيه وذلك «لأنّ قبول الشيء مرتّب علي سماعه و مسبّب عنه» (الزركشي، د.ت: ٢٥٦/٢). فالمدلول الحقيقي وهو«السماع» حاضر في الخطاب، ولكنّه يستدعي المدلول المجازي«القبول والإقبال»، فالمدلول الحقيقي حاضر غائب، حاضر في شكله الحسّي، غائب في مادّته المعنوية، في حين أنّ المدلول المجازي غائب في شكله الحسي وحاضر في مادّته المعنوية. ففي هذا المثال ينطلق الذهن من العنصر الحاضر المنزاح عنه دلالياً أي«السماع» بحثاً عن العنصر الغائب المنزاح إليه أي« قبول الأمر و الإقبال عليه».

ومنه أيضا قوله(عليه السلام) في إحدي خطبه:«بِيدِك ناصيةُ كلّ دابَّةٍ» (الخطبه/١٠٩) لم يقصد الإمام(عليه السلام) من«اليد» إثبات هذه الجارحة لله سبحانه بل انزاحت الكلمة من مدلولها الحقيقية ليراد منها المعني المنزاح إليه أي«في ملكك و تحت تصريف قدرتك» (ابن ميثم،١٣٦٢: ٥٦/٣). وبما أنّ اليد هو مصدر القدرة والتصرّف في الأمور فانزاح التعبير العلوي عن لفظة«القدرة و ما بمعناها» إلي«اليد». والذي سوّغ هذا الانزياح هو العلاقة السببية بين اللفظين، وتكمن بلاغة الانزياح هنا في تصوير الحقيقة المعنوية بصورة حسية تلزمها غالباً؛ لأنّه لاشيء أثبت من الصورة الحسية في الذهن، فآثر النص العلوي الانزياح عن الصورة المعنوية إلي الصورة الحسّية لفائدة الايضاح والانتقال من المعنويات إلي المحسوسات.

٢-٢-٢-العلاقة المسببية

وهي أن يذكر المسبّب ويراد به السبب بأن يكون المعني الأصلي للفظ المذكور مسبّباً عن المعني المراد، فيطلق اسم المسبّب علي السبب، ومنها قوله(عليه السلام) للاستسقاء في إحدي خطبه:«... وَ انشُر عَلينا رَحمتَك بِالسَّحابِ

المُنبَعِق» (الخطبة/ ١١٥) استخدم الإمام(عليه السلام) لفظة« الرحمة» للدلالة علي«المطر»، و في هذا انزياح عن المدلول الحقيقي للرحمة وهو«الخير و النعم» إلي مدلوله المجازي وهو« المطر».

بلّوريما ارتاه تودوروف حىن اعتبر:« أنّ الحدث اللساني العادي خطاب شفّاف نرى من خليلاحظ في هذا السياق أنّ لفظ«الرحمة» يعبر من مدلوله الحقيقي الأول إلي مدلوله المجازي الثاني عن طريق العلاقة المسببية التي تجمع بين المدلولين وتمكن السياق من الانزياح عن المسبب إلي السبب، ولعلّ بلاغة هذا الانزياح تظهر في تأكيده علي القوة السببية بين المطر والرحمة، وفي ذلك تنبيه للمؤمن إلي أنّ الرحمة كالمطر مصدره السماء وقد قدّرها المولي-عزّ وجلّ- وهي التي وسعت كلّ شيء.

ومنه قوله(عليه السلام):« إنَّ اللهَ بَعَثَ مُحمَّداً صَلَّي اللهُ عَليه وآلِه وَسَلَّمَ، وَليسَ أَحدٌ مِنَ العَربِ يقرَأُ كتاباً، وَلايدَّعِي نُبُوَّةً، فَسَاقَ النَّاسَ، حَتي بَوَّأَهُم مَحَلَّتَهم وَبَلَّغَهم مَنجاتهَم...» (الخطبه/٣٣) فذكر المسبَّب«المنجاة» في موضع السبب وهو دين الإسلام، و مغزي هذا الانزياح تأكيد منه (عليه السلام) علي ما في الإسلام من موجبات النجاة والفوز لمعتنقيه و«هو (الإسلام)في الحقيقة المنجاة التي لاخوف علي سالكها ولاسلامة للمنحرف عنها» (ابن ميثم،١٣٦٢: ٢/٧٣).

٣-٢-٢-العلاقة المحلية

تتحقق هذه العلاقة بإطلاق اسم المحلّ علي الحالّ به، ومثالها قوله(عليه السلام) في إخباره عن مستقبل البصرة:«فَويلٌ لَك يا بَصرةُ عندَ ذلك مِن جَيشٍ مِن نِقَمِ اللهِ! لا رَهَجَ لَه وَلا حَسٌّ...» (الخطبه/١٠٢). فالبصرة مجاز و«الخطاب لأهلها بما سيقع بها من فتنة الزنج» (ابن ميثم، ١٣٦٢: ٣/١٤). وذلك لأن البصرة لاتسأل، ويظهر الانزياح هنا في الانتقال من البصرة إلي أهلها. ويلاحظ أنّ انتقال الدلالة من البصرة إلي أهلها تمّ من خلال المجاورة، وليس من خلال

المشابهة؛ لأنّه لايوجد نقاط شبه بين الاثنين، وإنّما البصرة هي المحلّ، وأهلها هم الحالّون بها، فالعلاقة هنا محلّية، وهي التي مكنت لفظة«البصرة» من تجاوز مدلولها الأصلي إلي مدلولها المجازي، ويلاحظ أيضاً أنّ الارتباط بين«البصرة» و«أهلها» هو ارتباط خارجي، إذ يشكلّ الحقل الدلالي لكلّ منهما وحدة قائمة بذاتها منفصلة عن الأخري، وحقلا الدلالة في هاتين اللفظين لايتدخلان، لأنّ «البصرة» تبقي محافظة علي حقلها الدلالي الاصطلاحي التامّ مع أهلها أو من دونهم، وأهلها كذلك. وفي الانزياح عن الحقيقة إلي المجاز في هذا النص إشارة إلي ذيوع أمر الفتنة وانتشارها حيث تشمل كلّ سكان المدينة، وهناك قيمة أخري لهذا الانزياح تتمثل في الاختصار والاكتفاء عن ذكر أسماء أهل هذه المدينة بذكر المكان الذي يضمهم و يحتويهم.

ومن ذلك أيضاً قوله(عليه السلام) في أوصاف الذاكرين:«...وَأُعِدَّت لَهُم مَقاعِدُ الكرامات، فِي مَقعدٍ اطَّلَعَ اللهُ عَليهِم فيه، فَرَضِيَ سَعيهُم وَحَمِدَ مَقامَهم» (الخطبه/٢٢٢) فالمراد من مقام أهل الذكر هنا مكانتهم و شأنهم عند البارئ، فعبّر بالمحّل و انزاح إلي ما فيه من المكانة عند الذاكرين لله-جلّ ثناؤه-.

٤-٢-٢-الحالية

تتحقق هذه العلاقة بإطلاق اسم الحالّ في المكان علي محلّه، ومثالها قوله(عليه السلام) في مدح الرسول(صلى الله عليه وآله):«أَمينُ وَحيه وَخاتمُ رُسُله، وَبَشيرُ رَحمَته، وَنَذيرُ نِقمَته» (الخطبه/١٧٣). فعبّر الإمام(عليه السلام) بلفظ«الرحمة» وهي حالة، وأراد الجنّة وهي محلّ، وهكذا فإن الانزياح حدث للفظة«الجنّة» التي حلّت محلّها لفظة«الرحمة» تسمية للشيء باسم الحالّ فيه، ولعلّ ما يؤكد الانزياح عن المدلول الأول إلي المدلول الثاني القرينة الموجودة في السياق وهي قوله:« ونذير نقمته»، فالنبي(ص)« بشّر بالرحمة و أنذر بالعقاب فلمن أطاع الجنة و

لمن عصي النار»(الموسوي،١٣٧٦: ١٢٣/٣) وتظهر قيمة الانزياح في أنّ «الرحمة» أمر معنوي والتعبير بها بدلاً من الجنّة يبدو أكثر فاعلية لأنّه يعطي صورة مسبقة عمّا يلقاه المؤمن في الجنّة، فهو في رحمة ونعمة دائمة، ولهذا يسير المؤمن علي طريق الخير التي رسمها له الخالق-عزّ وجلّ- طمعاً في نيل هذه الرحمة.

ومنه قوله(عليه السلام) في كتاب له إلي زياد ابن أبيه وهو عامله بالبصرة:«أ ترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين وأنت عنده من المتكبرين وتطمع وأنت متمرغ في النعيم تمنعه الضعيف و الأرملة أن يوجب لك أجر المتصدقين؟!» (الكتاب/٢١). يظهر الانزياح في لفظة«النعيم»، لأنّ الانسان لايتقلب في النعيم بل يتقلب في مكان فيه النعيم والرخاء. فأطلق الإمام الحالة وأراد منها المحلّ،وسرّ الانزياح عن المدلول الحقيقي إلي المدلول المجازي في تجسيد ذلك الظرف الذي تمتتع به عامله من العيش المليء بالرخاء والبطر الذي لايمكن لصاحبه أن ينال به مقام المتصدقين بينما هو يمنع المساكين وذوي الحقوق من هذا العيش، فعلي هذا جري الإمام(عليه السلام) استفهامه علي سبيل الإنكار لأنّ مثل هذا الشخص يطلب أمراً لايتفق وعمله(ابن ميثم،١٣٦٢: ٤٠٠/٤؛ الموسوي، ١٣٧٦: ١٩٤/٤).

٥-٢-٢- اعتبار ما يكون

وهي أن يعبّر عن الشيء باعتبار ما سيؤول إليه، أي ما سيكون عليه الشيء في المستقبل، ومثاله قوله(عليه السلام) في بداية وصيته إلي ابنه الحسن(عليه السلام):« من الوالد الفان،المقرّ للزمان، المدبر العمر...» (الكتاب/٣١)، حيث يلاحظ أنّ الدلالة المعجمية للفظة«الفاني» لاتنسجم وسياق العبارة، وذلك لأنّ الفاني من الانسان من لايمكن له القيام بالأمور لأنّه صار فانياً، وإنّما الانسان الحيّ

هو الذي يقوم بالأعمال ومنها الوصية، فهكذا انزاحت لفظة«الفاني» من النص لتحلّ محلّها«الانسان الحيّ» الذي يصير أمره إلي الفناء في المستقبل، أمّا العلاقة بين المدلول الأول«الانسان الميت»، والمدلول الثاني«الانسان الحيّ» فهي علاقة تحوّلية، فبدل أن يستعمل النص العلوي لفظة«من الوالد الحيّ» للدلالة علي الوضع الحالي الذي نستنتجه من النصّ، استعمل لفظة«الفاني» علي اعتبار أنّ هذا الحيّ بعد عمره سيكون فانياً، وبذلك حلّت اللفظة الدالة علي حالة مستقبلية محلّ اللفظة الدالة علي الحالة الحاضرة. تظهر القيمة الدلالية لهذا الضرب من الانزياح في تأكيدها علي مصير الانسان الذي كتب عليه الفناء، فتتناص العبارة مع قوله تعالي« كلّ من عليها فانٍ ويبقي وجه ربّك ذوالجلال والإكرام» (الرحمن/٢٦-٢٧)، ففي النصّ« تفرير و اعتراف بهذا المصير الذي لابدّ أن يمرّ علي هذا الانسان بعد أن يقطع شوط الحياة بحلوه ومرّه، بطاعة لله أو بعصيانه» (الموسوي،١٣٧٦: ٢٦٧/٤).

٦-٢-٢- العلاقة الجزئية

وهي أن يذكر الجزء ويراد به الكلّ بحيث يكون المعني الأصلي للفظ المذكور جزءاً من المعني الكليّ المراد، ويشترط في هذا الجزء الذي يراد به الكلّ أن يكون له مزيد اختصاص بالمعني المقصود، ومن ذلك تعبيره(عليه السلام):« فَاسعَوا في فَكاك رِقابِكم مِن قَبلِ أَن تُغلَقَ رَهائِنُها» (الخطبه/١٨٣)، يظهر أنّ لفظة«الرقبة» انزاح من مدلوله الحقيقي وهو العضو المعروف ليراد به مدلوله المجازي «الانسان بجميع وجوده»، ويلاحظ أنّ الانزياح عن المدلول الأول إلي المدلول الثاني لم يتمّ علي أساس المشابهة، وإنّما علي أساس المجاورة، و علاقة المجاورة تكمن في أنّ«الرقبة» جزء من الانسان، ولهذا كان الانزياح عن الكل إلي الجزء، وهنا لابدّ من الإشارة إلي أنّ الارتباط بين الرقبة والانسان هو ارتباط داخليّ، إذ إنّ الحقل الدلالي للفظة«الرقبة» لايشكل وضعاً مستقلاً

عن الحقل الدلالي للفظة«الانسان»، فهي جزء منه، وفيها تظهر معاني السيادة والعبودية أوضح الظهور، ولهذا كان توظيفها في هذا النص ذا فيمة دلالية بالغة، فهو يشعر بخطورة المصير الذي يواجهه الانسان بعد موته حيث يصبح أسيراً مغلولاً تحيط أغلال أعماله بعنقه، فعليه أن يسعي كل السعي لتحريره بما يصنع و يدخّر لهذا المصير الأبديّ.

ومثله قوله(عليه السلام) التجاء إلي الله-سبحانه- لأن يغنيه من الفقر:« اللهمّ صُن وَجهي باليسارِ، وَلاتَبذُل جَاهي بِالإقتار...»(الخطبة/٢٢٥) وقد خُصّ الوجه بالذكر، لأنّ الذلّ والعزّ يبدو أثرهما علي الوجه، فآثر الإمام(عليه السلام) استخدام التعبير بالوجه وأراد به كلّ وجود الانسان من باب التعبير بالجزء وإرادة الكلّ، فحدث الانزياح لكلّ وجود الانسان الذي حلّ محلّه«الوجه» لأنّ الوجه هو أظهر الأعضاء علي المشاهدة وأجلّها قدراً.

قد تبين لنا من خلال تحليل هذه النماذج أنّه لابدّ للانزياح الدلالي-حتي يكون مقبولا للنفس و مؤثراً فيها- من علاقة تربط بين الدلالتين الحقيقية والمجازية للفظ، وهذه العلاقة هي التي تسوّغ مثل هذا الاستعمال، فيشترط فيها أن لاتكون واضحة وضوحاً تامّاً بحيث لاتحتاج إلي تأمّل وتدبّر، وفي الوقت نفسه ألّا تكون بعيدة مبهمة، وذلك لأنّ الانزياح الدلالي يفقد عنصر تأثيره بوضوح العلاقة وانكشافها الكامل بحيث لاتحسّ النفس معه بلذة الانتقال من الدلالة الأولي إلي الدلالة الثانية، فالعلاقة إذا لم تكن واضحة وضوحاً تاماً فإنّها تثير في المتلقي انفعال التشوّق، والتطلّع إلي معرفة الدلالة المجازية التي يريدها المتكلّم و يشير إليها هذا الاستعمال المجازي، حتي إذا وصل إليها تحسُّ نفسه حينذاك باللذة والمتعة. وقد أشار صاحب الطراز إلي هذه الحقيقة أثناء تعليله لقدرة الأسلوب المجازي علي التأثير في نفس المتلقي، حيث يقول:« إنّ النفس إذا وقفت علي كلام غير تامّ للمقصود منه تشوّقت

إلي كماله، فلو وقفت علي تمام المقصود منه، لم يبق لها هناك تشوّق أصلاً، لأنّ تحصيل الحاصل محال، وإن لم تقف علي شيء منه فلا شوق لها هناك، فأما إذا عرفته من بعض الوجوه دون بعض، فإنّ القدر المعلوم يحصل شوقاً إلي ما ليس بمعلوم...فيحصل مع المجاز تشوّق إلي تحصيل الكلام» (العلوي، ١٩٨٢: ٨٢/١). معني هذا أنّ المتلقي حينما يصل إلي المعني المراد من الانزياح الدلالي بعد تأمّل وتدّر، فإنّه يحسّ بالمتعة، وهكذا فإنّ قيمة الانزياح الدلالي، وقدرته علي التأثير في المتلقي تعتمد علي مهارة المبدع في اختيار الألفاظ ذات الدلالة الإيحائية المناسبة، وهذا ما نلمسه في نماذج غير قليلة من نهج البلاغة حيث وضع الإمام(عليه السلام) الألفاظ في مكانها المناسب في تعبير محكم متماسك.

٣-٢-الانزياح الاستعاري

الاستعارة لغة مشتقّ من العارية، والعارية ما تدالوله الناس بينهم، واستعار الشيء واستعار منه: طلب منه أن يعيره إياه،(ابن منظور، :مادة عور»، والاستعارة نقل الشيء من شخص إلي آخر حتي تصبح تلك العارية من خصائص المعار إليه (مطلوب، ١٩٨٣: ١٣٦/١)، ولاتتم عملية الاستعارة إلا بين متعارفين تجمع بينهما صلة تسمح بهذه الاستعارة، كما صرّح العلوي حيث قال:« ... ومثل هذا لا يقع إلا من شخصين بينهما معرفة ومعاملة فتقتضي تلك المعرفة استعارة أحدهما من الآخر من أجل الانقطاع، وهذا الحكم جارٍ في الاستعارة المجازية، فإنّك لاتستعير أحد اللفظين للآخر إلا بواسطة التعرف المعنوي، كما أنّ أحد الشخصين لايستعير من الآخر إلا بواسطة المعرفة بينهما»(العلوي، ١٩٨٢: ٩٨/١).

قد اهتمّ معظم البلاغيين بتعريف الاستعارة وتحديدها كمصطلح بلاغي في مؤلفاتهم، فقدعرّفها الجاحظ بقوله:« الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا

قام مقامه»(الجاحظ، د.ت : ٧٥٣/١)، وعرّفها الرماني بأنّها« تعليق العبارة علي غير ما وضعت له في أصل اللغة علي جهة النقل للإبانة» (الرماني، ١٩٦٨: ٨٥)، ويقول أبو الهلال العسكري:« الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلي غيره لغرض» (العسكري، ١٩٨٤: ٢٩٥).

يلاحظ من خلال هذه التعريفات أنّ مفهوم الاستعارة لم يتجاوز فكرة النقل أي نقل اللفظة من استعمال لغوي إلي استعمال آخر، وظلت فكرة النقل مسيطرة علي مفهوم الاستعارة حتي جاء عبد القاهر الجرجاني مركزاً علي فكرة أخري، وهي فكرة المشابهة حيث قال:« الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء وتظهره وتجيء إلي اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه» (الجرجاني، ١٩٩٢: ٦٧)، و هكذا كان عبد القاهر أكثر عمقاَ من سابقيه حيث عدّ الاستعارة ضرباً من المجاز القائم علي التشبه أو هي صورة تشبيهية لا يصلح دخول التشبيه عليها بعد حذف أحد طرفيها، وقد تأثّر به البلاغيون الذين جاؤوا بعده وتابعوه في هذا المفهوم، ولعلّ السكاكي كان أكثر هؤلاء دقة في تعرف الاستعارة إذ يقول:« هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر، مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به، دالاً علي ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به» (السكاكي، ١٩٨١: ٥٩٩).

ومن الواضح أنّ مفهوم هذه التعريفات يكاد يكون واحداً، فالاستعارة علي حسب هذه التعريفات استبدال شيء بشيء أو لفظ بلفظ لعلاقة محددة هي دائماً المشابهة. إنّ هذه التعريفات تمثّل الأساس الذي انبثقت منه نظرية الاستعارة الحديثة المعروفة ب«النظرية الاستبدالية» التي تري أنّ الاستعارة علاقة لغوية تقوم علي المقارنة، وشأنها في ذلك شأن التشبيه، ولكنّها تتمايز عنه بأنّها تعتمد علي الاستبدال أو الانتقال بين الدلالات الثابتة للكلمات المختلفة، أي أنّ المعني لايقدّم فيها بطريقة مباشرة، بل يقارن أو يستبدل بغيره

علي أساس من التشابه، فإذا كنّا نواجه في التشبيه طرفين يجتمعان معاً، فإنّنا في الاستعازة نواجه طرفاً واحداً يحلَ محلّ طرف آخر و يقوم مقامه، لعلاقة شبيهة بتلك التي يقوم عليها التشبيه(أبو العدوس، ١٩٩٧: ٥٣-٥٤).

إنّ النقد الغربي منذ أرسطو إلي يومنا هذا ينظر إلي الاستعارة نظرة خاصة حتي إنّها اكتسبت لقب« ملكة الصور البيانية» (بركة، ١٩٨٨: ٢٥)، لما لها من أثر في نفس المتلقي، ومن دلالة علي الإبداع الفنّي، غير أنّ هذه المزية للإستعارة لاتنحصر في المعني الذي يقصد إليه المتكلّم، ولكن في طريقة إثباته للمعني وتقديره إياه، فليست المسألة مجرد نقل كلمة من معني إلي معني، كما أنّها ليست بينية سطحية ساذجة، يتمّ فيها تحوّل أحد الطرفين للآخر في مستوي السطح فحسب؛ بل الاستعارة ملازمة لعمليات ذهنية ونفسية معقدة، و لهذا فإنّ فاعلية بنية الاستعارة تكاد تكون خالصة للمستوي العميق، من حيث أصرّ البلاغيون علي أنّ النقل لا يتصل بالمستوي السطحي، وإنما تخلص مهمته لمستوي العميق، فيجب عند تحليل الاستعارة تجاوز المستوي الصوتي إلي المنتوج الدلالي، بحيث تصبح مهمة الدال إشارية خالصة؛ لأنّ فنية الاستعارة تكمن في تعاملها مع المدول(عبد المطلب، د.ت :١٧١).

ففي هذا القسم من البحث نمعن النظر في الاستعارات التي وردت في نهج البلاغة ليظهر دورها الدلالي والجمالي مشيراً إلي الأثر النفسي المنبعث من تلك الاستعارات، وذلك من خلال الكشف عن المفارقة بين البنية السطحية الظاهرة، ودلالات البنية العميقة للاستعارات التي وظّفها الإمام(عليه السلام) في نهج البلاغة، و في كلّ ذلك لن يلجأ البحث إلي التقسيمات المتعددة للاستعارة، وإنما غرضه أن يلقي الضوء علي نماذج مختارة من هذه الاستعارات كي يتسني له من خلالها إظهار انزياح التعبير العلوي عن دلالات الألفاظ المألوفة أو الشفافة التي تسمح للمتلقي باختراقها سريعاً إلي ناتجها الدلالي، وإلي تلك

الدلالات العميقة أو الكثيفة التي لا يمكن اختراقها والوصول إلي ناتجها الدلالي إلا بعد طول تدبّر وتأمّل في السياق الذي وردت فيه هذه الألفاظ.

فمن تلك الاستعارات المصوّرة الموحية في نص نهج البلاغة قوله(عليه السلام) في شأن المنافقين:« وَلاتُطِيعوا الأَدعياءَ الذَّينَ شَرِبتُم بِصَفوِكم كدَرَهُم، وَخَلَطتُم بِصَحَّتِكم مَرَضَهُم» (الخطبة/١٩٢) يذهب عدد من الشارحين لنهج البلاغة أنّ المراد بالأدعياء المنافقون ويحتمل أن يراد بهم الذين ينتسبون إلي غير آبائهم ممن لادين لهم وقد أصبحوا زعيما لقبائلهم التي انتسبوا إليها(ابن ميثم، ١٣٦٢: ٤/ ٢٦٢). مما يلاحظ في هذا النص هو تزاحم الصور التي تجلّت في الانزياح الذي حدث في:« الصفو، والكدر،و الصحّة، والمرض» حيث تجاوز المدلول الأول لهذه المفردات إلي مدلولها الثاني، فالمراد ب«الصفو» معناه الاستعاري و هو الخالص من الدين والإيمان أو الحياة الصافية البعيدة من الفتن والثورات، كما انزاح لفظ«الكدر» عن معناه الأصلي وهو المكدّر من الماء والشراب إلي معناه المجازي وهو الزذائل النفسانية التي تتمثل في النفاق، والحسد، والكذب،و الخداع، والكفر وغيرها. وفي الجملة الأخيرة حدث الانزياح في كلمتي«الصحة» و«المرض»، حيث تجاوز المدلول الأول لكلمة«الصحّة» وهو بمعني سلامة الجسم إلي مدلوله المنزاح وهو«سلامة الإيمان و النفوس» و بالنسبة إلي كلمة«المرض» فانتقل المعني من مدلوله الأصلي وهو«علة الجسم» إلي معناه الاستعاري أي«الرذائل النفسانية».

وإذا تأملّنا في هذه المفردات نلاحظ أنّ هناك علاقة سوّغت الانزياح عن المدلول الأول الحقيقي إلي المدلول الثاني المجازي لهذه المفرادات، وهذه العلاقة هي المشابهة، فكما تتوفّر للجسم سلامته بالماء الصافي، فيوفّر الخالص من الدين والإيمان صفاء الحياة الروحية والنفسانية وفي نقطة المقابل الرذائل النفسانية تكدّر الحياة الروحية كما أنّ الكدر يغير الماء الصافي ويشوبه بما فيه من القاذورات والشوائب.وهكذا بالنسبة إلي العبارة الأخيرة، فالإيمان لسلامة

النفس يشبه الصحّة لسلامة الجسم، و كما يضرّ المرض بالجسم، فالرذائل الأخلاقية تضرّ بالنفس.

وإذا أردنا أن نتأمّل في القيمة الفنية للانزياح عن الحقيقة إلي المجاز في هذا النص يبدو لنا أنّ الانزياح عن الرذائل والمساوئ النفسانية إلي«الكدر» و«المرض» يعبّر عن مدي تمكن هذه الرذائل، واستحكامها، واستقرارها في قلوب المنافقين، ذلك لأنّ تشبيه المرض النفسي بالمرض الجسمي أقوي في التأثير، وأبلغ في البيان؛ لأنّ الأمراض الجسدية ظاهرة للعين بادية الأثر، هذه من جهة، و من جهة أخري إنّ الانزياح في هذه المفردات ينتج عنه حسن التعبير و هو الإيجاز و توسيع المعني حيث أنّ«الصفو و الصحة» يمكن أن يراد بهما سلامة الدين والإيمان، و سلامة الحياة الدنيوية، وكلّ الفضائل التي يجدر للانسان أن يتحلّي بها، كما أنّ«الكدر والمرض» يحمل معناهما علي الانحراف في الدين، والتوتر في الحياة الدنيوية، وجميع الرذائل الأخلاقية.

وكثُر في استعارات نهج البلاغة الانزياح عن الأمور المعقولة المعنوية إلي الأمور المحسوسة زيادة في تصوير المعني وتمثيله للنفس، منه قوله(عليه السلام) في الموت:« وَاعلَمُوا أَنَّ مَلاحِظَ المَنيةَ نَحوكم دانِيةٌ وَكأَنّكم بِمَخالِبها وَقَد نَشِبَت فِيكم» (الخطبة/٢٠٤). أراد الإمام(عليه السلام) تأكيداً علي إحاطة الموت بالانسان، وسرعة لحوقه إليه، فشبّه هذا المعني المجرّد بالصورة المحسوسة التي كثرما شاهدها كلّ الانسان خلال حياته. فالمفرات في هذا النص تقوم بدورها الإيحائي لتصوير هذا المعني المجرّد، حيث بدأ الإمام(عليه السلام) كلامه بفعل«واعلموا» الذي يدل علي اليقين فلايبقي مدلوله أيّ مجالاً للإنكار والشك في هذا الأمر. ثمّ يأتي دور كلمة« الملاحظ» فانزاحت الكلمة بإضافتها إلي«المنية»عن مدلولها الأصلي وهو موضع النظر للانسان، وصوّرت«المنية» في هيئة الحيوان المفترس الذي يرصد اصطياد الانسان، وتوحي صيغةالجمع في«الملاحظ» إلي أسباب الموت المتعددة المختلفة التي

تكون«تارة بالألم البسيط، وأخري بالبلاء الشديد، وثالثة بالأشدّ» (الموسوي ،١٣٧٦: ٤٤٣/٣)حتي تورد الانسان إلي حياض الهلاك والردي، وتدلّ كلمة«المخالب» علي استحكام أسباب الموت والفناء في حياة الانسان، فمن هذا المنطلق تتناص الصورة مع آية« أينما تكونوا يدرككم الموت ولوكنتم في بروج مشيدة» (النساء/٧٨).فأصبح المعني المجرّد العقلي شاخصاً أمام العين بتوظيف هذه المفردات في المعاني المجازية وهذا يؤكد المعني ويقرره في ذهن المتلقي.

والانزياح في الاستعارة يبعث في النفس من التأثير أضعاف ما يبعثه التعبير المباشر المجرّد، كما في قوله(عليه السلام) في الاستعانة بالله-سبحانه- من مكائد الشيطان:« وَأَستَعينه عَلَي مَداحِرِ الشَّيطانِ وَمَزاجِره وَالاعتِصام مِن حَبائِله وَمَخاتله» (الخطبه/١٥١)، فأصل الكلام: أستعينه علي طرد الشيطان والالتجاء به تعالي من وساوسه، ولكن تعبير الإمام(عليه السلام) انزاح عن لفظة«الطرد» إلي لفظة«الدحر»، كما انزاح عن لفظة« الوساوس» إلي لفظة«الحبائل»، والانزياح إلي هاتين اللفظتين له مسوغاته وأسبابه الدلالية، لأنّ:«الدحر: الدفع بعنف علي سبيل الإهانة والإذلال» (ابن منظور، ٢٠٠١:مادة دحر) فاستعار الإمام هذه اللفظة للعبادات والأعمال الصالحة التي بها يطرد الشيطان علي جهة الإهانة والإذلال. وبالنسبة إلي لفظة«الحبائل» فهي استعارة لوساوس الشيطان التي تتجلي في الشهوات و اللذات الدنيوية، حيث يتخذها الشيطان أشراكاً يصيد بها الناس(ابن ميثم، ١٣٦٢: ٢٢٢/٢) فالانزياح عن هذه المعقولات إلي المحسوسات له أثر بليغ، ووقع لطيف في النفوس، لأنّه يعتمد علي الخيال وعلي عرض الصفات والأعمال عرضاً حسّياً مجسّماً يري المخاطب فيه ما يراه إذا هو نظر في رسم أم تبصّر في تمثال.

ويظهر الانزياح الدلالي بصورة جلية في الالفاظ المستعارة لقصد التهكم والاستهزاء، إذ تبني الاستعارة أحياناً علي تنزيل التضاد الحاصل بين الطرفين منزلة التناسب لقصد التهكم، وتسمّي عندئذ بالاستعارة العنادية التهكمية، وقد عرّفها السكاكي بأنّها:« استعارة اسم أحد الضدين أو النقيضين للآخر بواسطة انتزاع شبه التضاد، وإلحاقه بشبه التناسب بطريق التهكم أو التلميح...، ثمّ ادعاء أحدهما من جنس الآخر، والإفراد بالجنس ، ونصب القرينة» (السكاكي، :٤٠٦). يفهم من هذا أنّ اللفظ ينتقل من حقله الدلالي المعروف له في أصل الاستخدام إلي حقل دلالي آخر، بحيث يقيم مع لفظ آخر علاقة دلالية جديدة من نوع التضاد أو التخالف. ومن أمثلة ذلك قوله(عليه السلام) واصفاً الدنيا:« ولَم يلقَ مِن سَرَّائِها بَطناً إلا مَنَحَته مِن ضَرّائِها ظَهراً» (الخطبة/١١١). فعلي حسب ما ورد في كتب اللغة، المنحة:« هي أن يعطي الرجل صاحبَه المالَ هبة أو صلة أو أن يمنح الرجل أخاه ناقة أو شاة يحلبها زماناً وأياماً ثم يردّده» (ابن منظور، ٢٠٠١:ماده منح)، فالمنحة إعطاء المال أو الشيء النافع الذي يوجب إدخال السرور للمعطي إليه، لكنّ اللفظة استعملت بمعني إيصال الضرر في هذا النص من نهج البلاغة، وفي إنزال التضاد الحاصل بين النفع والضرر منزلة التناسب تأكيد علي تقلّب أحوال الدنيا وعدم استقراها علي الخير والمنفعة بل سرعان ما تجنح إلي الإضرار. يعتمد أسلوب التهكم في تأثيره الفني والجمالي علي التفاعل بين المتلقي والنصّ طرداً وعكساً، حيث تتجه الدلالة في البنية السطحية من النص إلي المتلقي لتوحي في ذهنه بمدلول معين هو«إعطاء الخير والنفع»، ثمّ ترتدّ الدلالة مرّة آخري من المتلقي إلي النص، فترشح مدلولاً معاكساً في البنية العميقة هو« الإضرار». يبدأ النص ب«السراء/البطن/المنحة» وتبعث هذه المفردات أجواء السرور والاطمئنان بأحوال الدنيا للمتلقي و ذلك لأنّ« العادة في حالة السلم أن يكون بطن المجن ظاهراً أو العادة فيمن يلقي صاحبه بالبشر والسرور أن

يلقاه بوجهه وبطنه» (ابن ميثم:١٣٦٢: ٨٣/٣)، ولكنّه اطمئنان مؤقت، لأنّ العبارة ختمت سريعاً بمصاحبة«المنحة» ب«الضرّاء والظهر» فبعثت فيها أجواء الكراهية معاكسة للحالة الأولي وذلك لأنّ«العادة فيمن يلقي صاحبه بالتنكير والإدبار أن يلقاه بظهره مولياً عنه أو العادة -كما جري في المثل_ أن يقلب له ظهر المجن» (المصدر نفسه: ٨٣)،و تشكيل الصياغة علي هذه الصورة الجامعة للمفارقات«السراء والضراء/ البطن والظهر/ الإعطاء والإضرار» جاء معادلاً لفظياً لحالة الدنيا المعنوية، فهي تُظهر خيرها وبهجتها للانسان حيناً، لكنّها تتقلّب أحوالها بالسرعة وتبدي ما فيها من الشرّ والإضرار، فتحقّق المفارقة الصياغية في لفظة« المنحة» بتحولها من معني«الإعطاء» إلي معني«الإضرار» ثراء في العبارة عن طريق تجاور هذه المفردات المتضادة، وذلك مما يزيد طاقة العبارة وكثافة معناها.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ في نهج البلاغة_كسائر النصوص الفنية مثل القرآن- تجاوز الانزياح عن حدود الأسماء والأفعال إلي نماذج غير قليلة من الحروف، فهناك كثير من الحروف في هذا النص حدثت فيها الاستعارة لحرف من حرف آخر يماثله في أداء وظيفته العامة، ويفترق عنه في خصوصية هذا الأداء، كما في قوله (عليه السلام)في الخطبة الشقشقية:«حتّي مَضَي الأَوَّلُ لِسبيله» (الخطبة/٣)، فمن الواضح أنّ السبيل يمضي عليه ولا لها، و هذا ما صرّح به شرّاح نهج البلاغة مستدلين بقول الشاعر: فَخَرَّ صَريعاً لِليدَينِ وَلِلفَمِ،أي: علي اليدين وعلي الفم، لأنّ الخرّ سقوط من العلو(انظر: ابن أبي الحديد، ١٣٣٧:١/ ١٦٢؛ الخوئي، : ٥٠/٣؛ ابن ميثم، ١٣٦٢: ١/ ٢٥٦)، فانزاح تعبير الإمام(عليه السلام) عن حرف الجرّ« علي» الدال علي الاستعلاء إلي حرف الجرّ«اللام» الدال علي الغاية و الصيرورة، حيث تمّ تشبيه متعلق الاستعلاء بمتعلق الغاية و الصيرورة، أي تشبيه المستعلي علي الشيء بغاية من ينتهي أمره في ذلك الشيء. ويوحي هذا الانزياح إلي أنّ مضي الأول لسبيله كان بالتدرج

شيئاً فشيئاً، فكان المآل هو السبيل المعروف لكلّ نفس بشرية و هو الموت، وربما لايتوقف المآل عند هذا بل ثمّة إشارة في لفظة«السبيل» إلي ما بعد الموت من برزخ، وبعث، وحشر، وحساب، فلا يستحصل مثل هذا التفصيل مع غير اللام.

وأيضا من نماذج هذا الضرب من الانزياح قوله(عليه السلام) في الدنيا:« وَمَن أَبصَرَ بِها بَصَّرَتهُ، وَمَن أَبصَرَ إِليها أَعمَتَه» (الخطبة/٨٢)، فمن الواضح أنّ فعل«أبصر» متعدّ بنفسه، حيث لايحتاج إلي حرف جرّ للوصول إلي مفعوله، لكنه انزاح عن الأصل واستخدم في الموضعين بحرفي جرّ المختلفين أي« باء/ إلي». وقد خاض الشرّاح في تأويل هذا النص ولم يحملوا الألفاظ علي ظاهرها،إذ استقر لديهم تعدية فعل«أبصر» بنفسه، فعلّق ابن ابي الحديد حرف«إلي» بمحذوف تارة، وجوّز زيادة«إلي» في التركيب بقصد معني الظرفية تارة أخري، فقال:« يجوزأن يكون قوله(عليه السلام): من أبصر إليها، أي: ومن أبصر متوجهاً إليها، كقوله:«في تسع آيات إلي فرعون» النمل/١٢ ولم يقل: مرسلاً، و يجوز أن يكون أقام ذلك مقام قوله: نظر إليها...» (ابن ابي الحديد، ١٣٣٧ : ٢٤١/٦)، ويكاد يطبق سائر شراح نهج البلاغة علي قول بتضمين«أبصر» أفعالاً أخري تعلّقها ب«إلي» ظاهر جليّ وهي:«نظر/ توجّه/التفت»(انظر: الموسوي، ١٣٧٦ : ٤٥٨/١؛ التستري، ١٣٧٦: ٤٢٣/١١؛ البحراني، ١٣٦٢: ٩٠/١)، لكنّ مثل هذه التأويلات وخاصّة القول بالتضمين، تقلّل من دور الانزياح الدلالي في مثل هذه النصوص وذلك لأنّ خطيباً كالإمام علي(عليه السلام) وهو عالم بدقائق الكلام ودلالاتها لم يوظّف مثل هذه التعابير دون قصد، بل حينما ندقق النظر في كلامه نستشف وراء هذه الآليات الفنية التعبيرية أغراضاً لها، فانزاح تعبير الإمام(عليه السلام) في« أبصر بها وأبصر إليها» عن استعمالهما الأصلي ليصوّر الدنيا في هيئة شيء يبصر بها في قوله(عليه السلام):« أبصر بها» وفي هيئة شيء يبصر إليها في

قوله(عليه السلام):«أبصر إليها»، فيوحي الانزياح في هذا النص إلي موقفين متضادين من الدنيا لدي أهلها، فمن يتخذ الدنيا كوسيلة للاعتبار وواسطة للحصول علي السعادة، بصّرته الدنيا، وأما من اتخذها هدفاً و سعي في تحصيلها كل السعي، تجعله الدنيا أعمي فلايري عيوبها و زوالها.

٤-٢-الانزياح الكنائي

يدّل المعني اللغوي للكناية علي الانتقال من لفظ إلي لفظ آخر لغرض يريده المتكلّم، ورد في كتب اللغة:« الكناية أن تتكلّم بالشيء وتريد غيره وكني عن الأمر بغيره يكني كناية: يعني إذا تكلّم بغيره مما يستدل عليه...» (ابن منظور، ٢٠٠١ :مادة كني)، وهي مصدر كني يكنو، أو كني يكني، والكنو أو الكني معناه: الستر، أي ستر الاسم الدال علي المعني المراد والتعبير عنه بغيره.

ويلتقي المعني الاصطلاحي للكناية مع المعني اللغوي لها عند علماء البلاغة، فعبد القاهر الجرجاني يعرّفها بأنّها:« أن يريد المتكلّم إثبات معني من المعاني، فلايذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلي معني هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: هو طويل النجاد، يريدون طويل القامة» (الجرجاني، ١٩٩٢: ٦٦)، وواضح من قول عبد القاهر أنّ الكناية تشمل أيّ لفظ يذكر ويراد منه المعني غير المباشر له، أو لازم معناه، و يؤكد ذلك تعريف فخر الدين الرازي لها بأنّها:« عبارة عن أن تذكر لفظة، وتفيد بمعناها معني ثانياً هو المقصود» (الرازي، ١٩٨٥: ١٣٥)، و لهذا يمكن القول إنّ الانزياح عن لفظة إلي أخري هو ما يميز مفهوم الكناية، ولكن الانزياح عن هذه اللفظة لا يعني الاستغناء التام عنها، بل يظل معناها ماثلاً وفاعلاً في الأسلوب الكنائي لأنّها هي الدليل علي المعني المقصود ، ويستند إليها المتلقي لإدراك مدي القرب أو البعد بين المكني به والمكني عنه، ولهذا يعرّف القزويني الكناية بأنّها« لفظة أريد به لازم معناه مع جواز إرادة

معناه حينئذ، كقولك: فلان طويل النجاد، أي طويل القامة، وفلانة نؤوم الضحي، من غير التأويل» (القزويني، :١٥٨/٥-١٥٩)، ويذكر ضياء الدين بن الأثير أنّ الكناية:« كلّ لفظة دلّت علي معني يجوز حمله علي جانبي الحقيقة والمجاز، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز»(ابن الأثير، ١٩٣٩: ١٩٤/٢)

معني هذا أنّ المعنيين: الحقيقي والمجازي مطروحان في السياق، وعنصر القصد من قبل المرسِل هو الذي يرجّح مجاوزة المستوي السطحي للإسلوب الكنائي، ويحيل المتلقي إلي المستوي العميق الذي يدرك من خلال لازم المعني،«فالكناية بنية ثنائية الإنتاج، حيث تكون في مواجهة أنتاج صياغي له إنتاج دلالي موازٍ له تماماً بحكم المواضعة...وهو ما يؤكد وقوع الكنايةفي منطقة وسطي بين الحقيقة والمجاز، إذ لايمكن الميل بها إلي دائرة الحقيقة لتستقل بها، لأن الصياغة لم تنتج معناها فحسب، بل أنتجت لازماً مرافقاً لها، كما لايمكن أن تستقب بها دائرة المجاز، لعدم وجود القرينة المانعة من إرادة المعني الوضعي» (عبد المطلب، د.ت : ١٨٧-١٨٨). ولهذا فإنّ بنية الكناية تمثل صراعاً حاداً بين المعجم والسياق، فالمعجم يحاول جذب الصياغة إلي المنطقة الحقيقة، بينما يحاول السياق خلعها من معانيها المعجمية لتفرز الدلالة المجازية فقط، وهنا يكون المتلقي هوالفيصل في تحديد اتجاه الدلالة الذي تسير فيه الصياغة.

إنّ النظر في البناء الشكلي والعميق للكناية يدلّ علي اعتمادها علي عمليتي الحضور والغياب، و هذه النقطة ذات ميزة فنية لأنّها مفتاح للانزياح الدلالي في بنية الكناية، حيث تتولد الدلالة الحقيقية من خلال التشكيل اللفظي وغياب المكني عنه مؤقتاً، ثمّ حضور المكني عنه من خلال تتابع الوسائط بين المعني الحقيقي والمكني عنه، وبذلك يغيب المعني الحقيقي كلما اقتربت الوسائط من المكني عنه. ولهذا يمكن أن تعد الكناية انزياحاً دلالياً يعمد فيه

المبدع إلي الانتقال من المدلول الحقيقي للفظة إلي المدلول الكنائي لها لعلاقة بين المدلولين، هذه العلاقة هي علاقة اللزوم أو التلازم بين المعني الذي يدلّ عليه ظاهر اللفظ والمعني الكنائي المراد منه.

ففي هذا القسم من البحث نقوم بدراسة نماذج من الكنايات الواردة في نهج البلاغة لإظهار ما فيها من انزياح دلالي، وبيان ما في هذا الانزياح من لطائف و أسرار، فالكناية من التعبيرات البيانية الغنية بالاعتبارات، والملاحظات، والسمات البلاغية ولهذا فإن توظيفها في نص كنهج البلاغة باعتباره نصاً فنياً، يحقق العديد من المقاصد والأهداف، ولعلّ من أهمّ تلك المقاصد إفادة المبالغة في المعني، كما في قوله(عليه السلام):« فَخَرجُوا يجرّونَ حُرمَةَ رَسولِ الله(ص) كما تُجرُّ الأَمةُ عندَ شرائِها، مُتوجهينَ بها إلي البصرةِ، فَحَبَسا نِساءَهما فِي بُيوتهما وَأَبرزا حَبيسَ رَسولِ اللهِ(ص) لَهما وَلغيرهما» (الخطبة/١٧٢) فقد جاء هذا النص في ضمن الخطبة التي تحدّث فيها الإمام(عليه السلام) عن خروج أصحاب الجمل من المدينة إلي البصرة وفي طليعتهم الزبير وطلحة اللذين تشبّثا بكلّ وسيلة لتحريض الناس، منها تهييج عائشة زوجة النبي(ص)، فخرجا بها«إلي البصرة و وفي أمرهما معصية لله ولرسوله، قال الله تعالي مخاطباً زوجات رسوله(ص):« وقرن في بيوتكن»(الاحزاب/٣٣)، فهتكت ستر رسول الله وخرجت تقطعت البراري القفار في جيش خليط لايعرف الله ولايعرف حقّ رسوله، أخرجها الزبير وطلحة كي يندفع الناس وراءها حمية وغيرة» (الموسوي، ١٣٧٦: ٣/١١٧-١١٨). فعبّر الإمام في هذا النص ب«حرمة رسول الله /حبيس رسول الله» كناية عن زوجته (ابن ابي الحديد، ١٣٣٧: ٩/٣٠٨)، و« وجه الشبه انتهاك الحرمة ونقصانها في إخراجها وفي ذلك جرأة علي رسول الله» (البحراني ،١٣٦٢: ٣/٣٣١) وإذاتأملنا في سرّ الانزياح عن التصريح بالزوجة إلي كلمتي« الحرمة والحبيس» المضافتين إلي« رسول الله» يبدو لنا مدي تأثر

الإمام(عليه السلام) بهذا الحادث الذي تألّم منه كثيراً، فالنص يؤكد علي أنّ الزبير وطلحة بلغا في هتك حرمة الرسول(عليه السلام) غايتها لإبرازهما عائشة من بيتها متوجهين إياها إلي البصرة. فهناك عدة آليات فنية تفيد المبالغة في هذا الهتك الذي ارتكبه الزبير و طلحة؛ منها: إضافة«الحرمة والحبيس» إلي«رسول الله»، و العدول عن الإضمار بالإظهار في«حبيس رسول الله»، وتشبيه إخراجها بإخراج الإماء عند شرائها، والمسافة الطويلة التي استغرقت بين المدينة والبصرة التي تدلّ علي طول المدة لهذا الانتهاك ،وحبسهما نساءهما في البيوت، ففي كلّ هذه التعابير ما يدلّ علي شناعة هذا الحدث.

إنّ الانزياح عن المعني الحقيقي إلي المعني الكنائي في نهج البلاغة ينطوي علي قدر كبير من التأثير النفسي، فمن خلال الكناية يشعر المتلقي بميل إلي اكتشاف المعني الكنائي المنزاح إليه وراء المعني الحقيقي المنزاح منه وعندها يحسّ بالمتعة والسعادة، إذ إنّ الشخص يشعر بسعادة كبيرة حينما يحصل علي الشيء بعد تعب وطول معاناة، ومن هنا فإنّ الكناية ترفع من قيمة المعني البعيد الذي تشير إليه في نظر المتلقي وتعمل علي توكيده في نفسه، وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلي ذلك حينما قال:« وكما أنّ الصفة إذا لم تأتك مصرّحاً بذكرها، مكشوفاً عن وجهها، ولكن مدلولاً عليها بغيرها، كان ذلك أفخم لشدنها، وألطف لمكانها، كذلك إثباتك الصفة للشيء تثبتها له، إذا لم تلقه إلي السامع صريحاً، وجئت إليه من جانب التعريض والكناية والرمز والإشارة، كان له من الفضل والمزية، ومن الحسن والرونق، ما لا يقل قليله، ولايجهل موضع الفضيلة له» (الجرجاني، ١٩٩١: ٢٣٠)، ويمكن تتبّع هذا التأثير النفسيّ للصور الكنائية في مواضع غير قليلة من نهج البلاغة، فمن ذلك قوله(عليه السلام):«...وعاضٌ عَلَي يدَيه، وَصَافِقٍ بِكفّيه، وَمُرتَفِقٍ بِخَدّيه» (الخطبة/١٩١)، فليس المراد من هذه الصور الثلاث تلك الحركات المادية التي تتمثل في وضع اليدين بين الأسنان، والضغط بها عليهما، ولافي ضارب

بإحدي يديه علي الأخري، ولا في جاعل مرفقيه تحت خدّيه؛ لأنّه لاقيمة لهذه الحركات في ذاتها، وإنّما القيمة الحقيقة لما ترمز له، وتدلّ عليه، و هو الأحساس بالندم والتحسّر علي ما فات، و«الكناية عن ندم الظالمين بعد الموت علي التفريط والتقصير، إذ كان من شأن النادم ذلك» (البحراني،١٣٦٢: ٢٣٠/٤) ومما يلاحظ في هذا الانزياح أنّ ثنائية الحضور والغياب تسيطر علي صيغة هذا النص، فالمكني عنه« الندم/ الحسرة/التفريط» غائب، والمعني الحقيقي«عضّ اليدين/التصفيق/ الارتفاق بالخدّ» ظاهر، والانزياح عن المعني الغائب إلي المعني الحاضر يحقق الجمال ويمتع النفس؛ لأنّه يحمل في طياته الدلالة علي شدة الندم والحسرة التي دفعت صاحبها إلي مثل هذه الحركات المادية الجسدية.

ومن الأبعاد النفسية المهمة التي يفيدها الانزياح الكنائي في نهج البلاغة هو التعبير بالكناية عمّا يستقبح التصريح به، ومن هنا يمكننا القول إنّ من الأسباب التي تدعونا إلي للانزياح عن الأسلوب المباشر إلي الأسلوب الكنائي أنّ الأسلوب الكنائي يستعمل في بعض سياقاتها للستر والخفاء في المعاني التي يجمل إخفائها وعدم التصريح بها، لمنافاتها الذوق السليم، فنحن نجد كثيراً من مفردات اللغة ذات دلالات جنسية، أو مرضية، أو حياتية، أو غير ذلك من الدلالات التي يثير التعبير عنها بألفاظها المعهودة نوعاً من الحرج أو الخجل أو الاستحياء عند مستعملها أو متلقيها، ولذلك دأب أهل اللغة علي ترك هذه الألفاظ وحظر استعمالها خضوعاً لما يتطلبه السياق الذط تجري فيه اللغة من اداب التواصل والسلوك اللغوي بين المتالمين، والتعويض عنها باستعمال ألفاظ تؤدي دلالاتها ولكنها أكثر رقياً وتهذيباً، وهذه الألفاظ التي يحظر استعمالها يطلق عليها اليوم«المحظورات اللغوية»، وهي ذات بعدين:

الأول: الكلمات المحظورة نفسها(Tabboed Words)، والثاني: الكلمات المتحولة إليها وهي الكلمات المحسنة(Euphemistics) (نهر،

٢٠٠٨: ٣٤٢)، و تتجلي في نهج البلاغة أروع الصور للأنماط التعبيرية التي استعملت هذا الحقل الدلالي لأداء المعاني بألفاظ تراعي أحوال المتخاطبين مبتعدة عن كلّ ما يخدش السمع، أو يثير الحرج، وذلك حين يكون التعبير الصريح المباشر كاشفاً لما ينبغي ستره، أو مجافياً للذوق والخلق، و يكون أسلوب الكناية هو الأداء الفنية المستساغة للتعبير عن المعني كما في قوله(عليه السلام):« فَإذا نَظَرَ أَحَدُكم إلي امرأةٍ تُعجبُه، فَليلامِس أَهلَه، فَإنّما هِي امرأةٌ كامرأَتِه» (القصار/٤٢٠)، ففي هذه العبارة إشارة إلي أدق الأمور الجنسية التي تقع بين الزوجين وهو الجماع، وقد آثر الإمام علي(عليه السلام) الانزياح عن لفظة« فليجامع أو يضاجع» إلي لفظة« فليلامس». ويعود سرّ الانزياح عن اللفظة الأولي«فليجامع أو يضاجع» إلي ما يثيره من حرج عند المتلقي، علي عكس اللفظة الثانية« فليلامس» التي تومئ بظلالها إلي المعني المراد دون دن تمسّ عفافاً إو تجرح حياء.

وقد تأثر تعبير الإمام في هذا الضرب من الانزياح بأسلوب القرآن الذي يعدل فيه التعبير القرآني عن التصريح بما يستقبح ذكره إلي الكناية عنه، كقوله تعالي:« أو لامَستُمُ النِّساءَ» (النساء/٤٣)، وفي قوله:«فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ» (البقرة/١٨٧) وغير ذلك من الآيات التي كلها الكنايات والتعريضات التي تُعدّ آداب حسنة علي المؤمنين أن يتعلّموها ويتأدبوا بها في محاوراتهم ومكاتباتم.

ومثل ذلك قوله(عليه السلام):« الحمدُ للهِ الذي لم يصبِح بي ميتاً وَلاسقيماً وَلا مَضروباً عَلي عُرُوقي بِسُوءٍ» (الخطبة/٢١٥)، فقوله:(ولا مضروباً علي عروقي) كناية عن الأمراض التي يستقبح العرب ذكره كالبرص و الجذام و غيرهما من الأمراض التي تشوّه صورة الانسان(أنظر: البحراني، ١٣٦٢: ٣٦/٤؛ ابن ابي الحديد، ١٣٣٧: ١١/ ٨٤؛ الخوئي،١٣٥٦ : ١١٥/١٤؛ الموسوي، ١٣٧٦: ٤٨٩/٣).

كثيراً ما يوظّف الإمام(عليه السلام) أسلوب الكناية كقياس منطقي أراد به تقرير المعني المراد، منه قوله في توصيف جماعة كثيرة من الناس الذين حاصروه مصرين علي بيعتهم إياه بمن فيهم من الصغير، والكبير، والعليل والصبايا اللاتي خرجن من سترهن شوقاً إلي هذه البيعة:« ...حتّي انقَطَعَت النَّعلُ، وَسَقَطَ الردّاءُ، وَوُطِئَ الضعيفُ، وَبَلَغَ مِن سُرور الناسِ بِبَيعتهم إيايَّ أن ابتَهَجَ بها الصَّغيرُ، وهَدَجَ إليها الكبيرُ، وَتَحامَلَ نحوها العَليلُ، وَحَسَرت إليها الكعابُ» (الخطبة/٢٢٩)

يدلّ القسم الأول من النص علي شدة ازدحام المبايعين وكثرتهم بأسلوب غير مباشر، حيث جعل الإمام(عليه السلام) من انقطاع النعل، وسقط الرداء، ووطئ الضعيف كناية عن عدد كثير من الذين بايعوه علي أمر الخلافة، حتي بلغ الأمر إلي« أن انقطع الحذاء لأن بعضهم يدوس علي أرجل البعض، وسقط الرداء بحيث اشتغل كل بنجاة نفسه من هذا الازدحام...ولم ينتبهوا إلي الضعيف فوطئ و ديس وهذا لايكون إلا عند الاضطرار وعدم الانتباه من أجل أمر مهم» (الموسوي، :٧٢/٤)، ويدلّ القسم الثاني من النصّ علي سرور جميع الناس بهذه البيعة ، حتي شمل السرور الذين من لايهّتهم بالأمور السياسية والاجتماعية كالبيعة، فانزاح تعبير الإمام(عليه السلام) عن سرور طبقات الناس المختلفة إلي الصغير، والكهول، والمريض، و الفتيات الجميلات. ففي هذا إشارة إلي مستوي سرور كل واحد منهم بدءاً من الصغير وانتهاءاً بالعليل المريض، فضلا عن انكشاف الجواري الكعاب اللواتي تناسين حجابهن وتساهلن في ستر وجوههن بعد ما سمعن ببيعة الإمام(عليه السلام). وإذا كان حالة الناس في بيعتهم علي هذه الأوصاف فحقّ عليهم أن يلتزموها وألّا ينكثها أحد، إذن يعدّ كلام الإمام(عليه السلام) في توظيف هذه الكنايات« في قوة صغري قياس ضمير من الشكل الأول وتلخيصها أنّكم بلغتم في طلبكم لي

وحرصكم علي بيعتي إلي هذه الغاية حتي أجبتكم وتقدير الكبري: وكل من كذلك فليس له أن ينكث ويغدر» (البحراني، ١٣٦٢: ٤/١٠٠).

ومما نجده في بعض الكنايات الواردة في نهج البلاغة هو الانزياح عن الصورة المعنوية إلي الصورة المادية المحسوسة لفائدة الايضاح والانتقال من المعنويات إلي المحسوسات؛ لأنه لاشيء أثبت من الصورة الحسية في الذهن، فمن ذلك قوله(عليه السلام) في ترسيم ما قاساه من الغمّ و المعاناة في أمر الخلافة:« فَصَبرتُ وَفِي العَينِ قَذًي وَفِي الحَلقِ شَجًي» (الخطبة/٣). فالجملتان« كنايتان عن شدة ما أضمره من التأذي والغبن» (البحراني،١٣٦٢: ١/٢٥٦)، فتكمن بلاغة الانزياح هنا في تصور اللامحسوس بصورة حسية تلزمها غالباً وذلك لأنّ الانسان الذي وقع في عينيه ما يؤلمها أو علق في حلقه، لايحسّ بالراحة ولايصفو له العيش، بل يري نفسه في أشدّ الحالات ألماً وغمّاً، فهكذا أسهم الانزياح عن المدول الحقيقي إلي المدلول المكني عنه في تجسيد المعني المجرّد وإبرازه في صورة محسوسة أدت إلي تأكيدها ورسوخها في النفس.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير ما نبتدئ به القرآن الكريم

- نهج البلاغة، مترجم: محمد دشتي(١٣٩٣). تهران: پيام عدالت.
- ابن الأثير، ضياء الدين(١٩٣٩). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر: مطبعة مصطفي البابي وأولاده.
- ابوالعدوس، يوسف(١٩٩٧). الاستعارة في النقد الأدبي الحديث، ط١، عمان: دار الأهلية للنشر والتوزيع.
- ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله(١٣٣٧). شرح نهج البلاغة، ط١، كتابخانه عمومي آيت الله مرعشي نجفي.
- ابن منظور، محمد بن مكرم(٢٠٠١).لسان العرب، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن ميثم، ميثم بن علي البحراني(١٣٦٢). شرح نهج البلاغة، ط٢، دفتر نشر الكتاب.

- بركة، بسام(١٩٨٨). التحليل الدلالي للصور البيانية عند ميشال لوغوارن، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، العدد٤٨، صص٢٥-٣٦.
- التستري، محمد تقي(١٣٧٦). بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، تهران: مؤسسه انتشارات امير كبير.
- الجاحظ، ابوعثمان عمروبن بحر(د.ت). البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الجيل.
- الجرجاني، عبد القاهر(١٩٩١). اسرار البلاغة، شرح وتعليق وتحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، وعبد العزيز شرف، ط٢، بيروت: دار الجيل.
- ----------(١٩٩٢). دلائل الإعجاز، تعليق: محمود محمد شاكر، ط٣، القاهرة: مكتبة الخانجي.
- الخوئي، ميرزا حبيب الله(١٣٥٦). منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، تهران: مكتبة الإسلامية.
- خياط، يوسف(د.ت). معجم المصطلحات العلمية والفنية، ط٣، بيروت: دار لسان العرب.
- الرازي، فخر الدين(١٩٨٥). نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق: ابراهيم السامرائي، ومحمد بركات ابوعلي، عمان: دار الفكر.
- ربابعة، موسي(٢٠٠٣). الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، ط١، إربد: دار الكندي للنشر والتوزيع.
- الرماني، ابوالحسن علي بن عيسي(١٩٦٨). النكت في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، ط٢، مصر: دار المعارف.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله(د.ت). البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد ابو الفضل، بيروت: دار المعرفة.
- السكاكي، ابو يعقوب محمد بن علي(١٩٨١). مفتاح العلوم، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، ط١، بغداد: مطبعة دار الرسالة.
- طاليس، أرسطو(١٩٦٧). صنعة الشعر، ترجمة: شكري محمد عياد، ط١، القاهرة: دار الكتاب العربي.
- عبد المطلب، محمد(د.ت). البلاغة العربية قرآءة أخري، مكتبة لبنان.

- العسكري، ابو هلال(١٩٨٤). الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: مفيد قميحة، ط٢، بيروت: دار الكتب العلمية.
- العلوي، يحيي بن حمزة(١٩٨٢). كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، بيروت: دار الكتب العلمية.
- عيد، رجاء(١٩٩٣). البحث الأسلوبي معاصرة والتراث، ط١، الإسكندرية: منشأة المعارف.
- فضل، صلاح(١٩٨٥). علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ط٢، القاهرة: الهيئة المصرية العامّة للكتاب.
- فندريس، جوزيف(١٩٥٠). اللغة، عريب: عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، القاهرة: مكتبة أنجلو المصرية.
- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب(٢٠٠٤). القاموس المحيط، تقديم: ابوالوفاء نصر الهديمي المصري، ط٤، بيروت: دار الكتب العلمية.
- القزويني، الخطيب(١٩٩٣). الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق: محمد عبد المنعم الخفاجي، ط٣، بيروت: دار الجيل.
- كوهن، جان(١٩٨٦). بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الوالي، ومحمد العمري، ط١، النغرب: دار توبقال للنشر.
- المسدي، عبد السلام(١٩٨٢). الأسلوبية والأسلوب، ط٢، تونس، دار العربية للكتاب.
- مطلوب، أحمد(١٩٨٣). معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العربي العراقي.
- الموسوي، سيد عباس(١٣٧٦). شرح نهج البلاغة، بيروت: دار الرسول الأكرم، ودار المحجة البيضاء.
- نهر، الهادي(٢٠٠٨). علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، ط١، عمان: دار الكتاب العالمي.
- ويس، أحمد(٢٠٠٢). الانزياح في التراث النقدي البلاغي، دمشق: مكتبة اتحاد الكتاب العرب.